فريق التفريغ بموقع الطريق إلى الله
يـــقـــدم

من سلسلة "لا تقنطوا"

احذر من اليأس (2)

(باللهجة المصرية)

لفضيلة الشيخ: أحمد جلال

رابط المادة: http://way2allah.com/khotab-item-135962.htm

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصَحْبِه ومَن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدّين، أمَّا بعد:

الحلقة اللي فاتت اتكلّمنا فيها مع بعض على إنّ الشيطان حريص جدًّا إنَّك بعد الذنب يُيَئِّسك، إنّك تكون يائس ومُحْبَط، إنَّك تكون قانط من رحمة الله –سبحانه وتعالى–.

قُلت لكم إنّ الشيطان بيعمل معانا مسألة اليأس والإحباط علشان ثلاث حاجات:

الحاجة الأوَّلانيَّة: إنّ الإنسان منّا إذا يأس فوقع في كبيرة فالشيطان جمع ليك بين الذّنب وبين الكبيرة.

الحاجة التَّانية: إنّ الشيطان لمّا الإنسان منّا بيوصل لمرحلة اليأس أنا بنهمك في المعاصي، ما هي بايظة بايظة، وخربانة خربانة.

الحاجة التَّالتة: إنّ أنا حتى لو عندي عمل صالح وطاعة أنا بعملها مع الذَّنب إذا يَئِست أنا بسيب العمل الصَّالح.

قُلت لكم إنّ الله –سبحانه وتعالى– فتح باب التوبة لكُلّ أحد، وقُلت لكم إنّ ربّنا قال لنا في قَوْله تعالى: "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ" الزمر:٥٣. الآية دي نزلت في شأن تلاتة:

ناس راحوا للنبي قالوا له: إحنا أهل شرك قتلنا فأسرفنا زنينا فأسرفنا شربنا الخمر فأسرفنا، وربّنا فتح لهم باب التوبة.

الحاجة التانية: نزلت في وحشي بن حرب اللي قتل سيدنا حمزة، لَمَّا راح للنّبي يقول له: يا رسول الله، جئتُ مستجيرًا بالله إليك، مستجيرًا بالله فأجرني حتى أسمع كلام الله، هل لي مِن توبة؟ بعد ما قتل سيدنا حمزة وربّنا قبلها منه، ربّنا –سبحانه وتعالى– قبلها منه.

الأمر التَّالت نزلت في هشام بن العاص اللي ارتدّ بعد إسلام، ارتدّ بعد إسلام في زمن النّبي –صلّى الله عليه وسلّم– ، والصحابة لَمَّا اختلفوا هو اللي ارتدّ بعد إسلام ربّنا يقبله ولا لا؟ فنزلت الآية، سيدنا عمر بن الخطاب كتبها له في ورقة وبعتها له فتاب، وحَسُن إسلامه، وعاد مرَّةً ثانية للنبي –صلّى الله عليه وسلم–، ومات شهيدًا مع المجاهدين.

أنا عايز النَّهارده أكمّل مسألة اليأس، هو ليه اليأس؟ ليه نيأس واحنا لينا ربّ غفور رحيم، سمّى نفسه التوّاب، سمَّى نفسه الغفور، وسمّى نفسه الرحيم، وسمّى نفسه العفوّ، وسمّى نفسه التوّاب، هذا الربّ العظيم الذي قال عنه النبي

-صلّى الله عليه وسلم-: "إن اللهَ عز وجل يبسطُ يدَه بالليلِ، ليتوبَ مسيءُ النهارِ. ويبسطُ يدَه بالنهارِ، ليتوبَ مسيءُ الليلِ. حتى تطلعَ الشمسُ من مغربِها" صحيح مسلم. لمّا يكون ليّا ربّ يفعل هذا ليل نهار إزَّاي اليأس يخشّ قلبي؟ إزَّاي في يوم من الأيام اليأس يخشّ قلبي وربّنا -سبحانه وتعالى- بعث رسول يقول لنا: واللهِ "لو أخطأْتُمْ حتى تَبْلُغَ خطاياكم السماءَ، ثُمَّ تُبْتُم لَتابَ اللهُ عليكم" حسنه الألباني.

إزَّاي الإنسان منّا ييأس أو يقنط من رحمة الله، والله -سبحانه وتعالى- يقول: "يا ابنَ آدمَ، لو بلغت ذنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ.."، لو ذنوبك كعدد حبَّات الرمل والرمل ده اتجمّع لحدّ ما وصل إلى السّماء، ".. لو بلغت ذنوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثمَّ استغفرتَني غفرتُ لَكَ -ما كان منك- ولا أبالي" صححه الألباني.

لماذا نيأس؟ ولنا ربّ أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا، ربّنا -سبحانه وتعالى- أرحم بنا من آبائنا وأمّهاتنا، لو في يوم من الأيام أخطأت في حقّ والدي رُحْت بُسْت ايديه ورجليه وقُلت له أنا آسف سامحني هيرحمني، ربّنا أرحم بيَّا مِن والدي ووالدتي، عمر بن الخطاب بيقول: قَدِم على النبي -صلّى الله عليه وسلم- سبيٌ فإذا امرأةٌ من السّبي فقدت ولدها، فأخذت تبحث عنه يمينًا ويسارًا حتى إذا وجدته أخذته، فاحتضنته وألصقته ببطنها وأرضعته[1]، ".. فقال لنا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أترَونَ هذه طارحَةً ولدَها في النارِ؟ قُلنا: لا، وهي تقدِرُ على أن لا تطرَحه، فقال: لَلّهُ أرحَمُ بعبادِه من هذه بولَدِها" صحيح البخاري. ربّنا أرحم بينا من آبائنا وأُمّهاتنا.

إزَّاي يكون ده تعامُل ربّنا معانا وأنا في يوم من الأيام يدخل في قلبي يأس؟ سيدنا أنس بيقول: "مَرَّ النبيّ -صلّى الله عليه وسلم- بأناسٍ من أصحابه، وصبيٌ بين ظهراني الطريق.."، وطفل بيعدّي الطريق كده، ".. فلمّا رأت أُمّه الدّواب.."، لَمَّا شافت الجمال والخيل وكُلّها ماشية في قلب الطريق والولد بقى في نُصّ الطريق، ".. خَشِيَتْ أن تطأ الدّواب ولدها فسَعَتْ والهةً.."، طلعت تجري بسرعة جدًّا، ".. وهي تصرخ وتقول: ابني، ابني، فاحتملت ابنها، فقال القوم: يا نبيَّ الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النّار، فقال رسول الله -صلّى الله عليه وسلم-: واللهِ واللهِ لا يُلْقِي اللهُ حبيبه في النّار أبدًا"[2]، ليه نيأس وده ربّنا -سبحانه وتعالى-؟

لِمَ اليأس ولنا ربّ يفرح بتوبتنا، ليه نيأس في يوم من الأيام ولنا ربّ يفرح بتوبتنا؟ لله أشد فرحًا بتوبة أحدكم من أحدكم كان على بعيره ففقده في الطريق عليه طعامه وشرابه حتى إذا نام، استيأس خلاص، هيموت في الطريق بيفتح عينيه، وجد الدّابة وعليها الطعام والشراب، فأخطأ من شدّة الفرح فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك[3]، ربّنا أفرح من هذا الإنسان اللي وجد مصدر حياته مرَّة تانية بين إيديه.

---

[1] "قدِمَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَبيٌ، فإذا امرأةٌ من السبي قد تحلُبُ ثَديَها تَسقي، إذا وجدَتْ صبيًّا في السبي أخذَتْه، فألصقَتْه ببَطنِها وأرضعَتْ.." صحيح البخاري.

[2] "مرَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بأُناسٍ من أصحابِه وصبيٌّ بين ظهرانَي الطريقِ فلما رأتْ أُمُّه الدوابَّ خشيَتْ على ابنِها أن يُوطأ فسعتْ والهةً فقالتْ ابني ابني فاحتملتِ ابنَها فقال القومُ يا نبيَّ اللهِ ما كانت هذه لِتُلقِي ابنَها في النَّارِ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا واللهِ لا يُلقِي اللهُ حبيبَه في النارِ" صححه الألبانيُّ على شرطِ الشيخين.

[3] "للهُ أشدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه، حين يتوبُ إليه، من أحدِكم كان على راحلتِه بأرضٍ فلاةٍ. فانفلتت منه. وعليها طعامُه وشرابُه. فأيِس منها. فأتى شجرةً. فاضطجع في ظلِّها. قد أيِس من راحلتِه. فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمةً عنده. فأخذ بخطامِها. ثم قال من شدةِ الفرحِ: اللهم! أنت عبدي وأنا ربُّك. أخطأ من شدةِ الفرحِ" صحيح مسلم.

إزَّاي نيأس وربّنا سبحانه وتعالى لَمَّا كان بينزل سور القرآن بيوضّح فيها هو قَدّ إيه بيحبّنا وبيحبّ إنه يتوب علينا، ابن عباس كان بيقول: ثماني آيات ربّنا أنزلها في سورة النساء هي خيرٌ لهذه الأمة مِمَّا طلعت عليه الشمس وغربت:

أوَّلهن: "يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ" النساء:٢٦.

التانية: "إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ" النساء:٣١.

التَّالتة: وهي قَوْل الله عزَّ وجلَّ:

"وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا" النساء:١١٠.

الرَّابعة: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ" النساء:٤٨.

شُفتوا ربّنا بيتكلم إزَّاي؟ شُفتوا ربّنا –سبحانه وتعالى– بيتكلّم معانا إزَّاي؟ هو ده ربّنا، هو ده ربّنا –سبحانه وتعالى–. ياه ياه ربّنا –سبحانه وتعالى– اللي بيتكلّم معانا في القرآن، وبيقول لنا: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ" التحريم:٨. هو ده ربّنا –سبحانه وتعالى–. ربّنا –سبحانه وتعالى– اللي بيقول لنا في القرآن: "وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا" هو ده ربّنا.

ليه اليأس وليه القنوط وليه الإحباط..؟ والله –سبحانه وتعالى– قد فتح لنا بابًا للتَّوبة لا يغلقه الله أبدًا إلا إذا طلعت الشمس مِن مغربها، صفوان بن عسال بيقول: سمعت النبي يقول: "إنّ الله تعالى جعل بابًا بالمغرب، بابًا عرضه مسيرة سبعين عامًا، جعله للتوبة، لا يُغلق ما لم تطلع الشمس مِن قِبَله"[4].

والنبي –صلّى الله عليه وسلم– بيقول: "لا تنقطِعُ الهجرةُ حتَّى تنقَطعَ التَّوبةُ، ولا تنقطِعُ التَّوبةُ حتَّى تطلِعَ الشَّمسُ مِن مغرِبِها" رواه أبو داود وصحَّحه الألباني.

سيدنا عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– جاءه رجل وقال: يا ابن مسعود، فعلتُ ذنبًا عظيمًا، أنا عملت ذنب عظيم جدًّا، فتركه ابن مسعود وأكمل حديثه، فنظر إليه ابن مسعود فإذا بالرجل عيناه تذرفان، فقال له: "يا هذا، إنَّ للجنة سبعة أبواب، كلها تُفتح وتُغلق إلى يوم القيامة، إلا باب التوبة، فإنَّ الله –سبحانه وتعالى– لا يُغلقه أبدًا"[5]. فإنَّ الله –عزَّ وجلَّ– لا يُغلقه أبدًا. ياه.

أبو قلابة بيقول: إنَّ اللهَ لَمَّا لعن إبليس سأله النّظرة "أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ" الأعراف:١٤، فلمَّا أنظره الله –سبحانه وتعالى– قال: "وعزّتك ياربّ لا أخرج من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح"

---

[4] ".. أن الله عز وجل جعلَ بالمغربِ بابا عرضه مسيرةَ سبعينَ عاما للتوبَةِ لا يُغْلَقَ ما لم تطلعِ الشمسُ من قبلِهِ.." أخرجه الترمذي وصَحَّحَه.

[5] أتى رجل ابن مسعود، وقد ألمَّ بذنب، فسأله فأعرض عنه، فلحظه عبد الله أو التفتت إليه، فإذا عيناه تذرفان، وقال: "هذا أوان همك ما جئت له، إن للجنة سبعة أبواب، كلها تفتح وتغلق إلى يوم القيامة إلا باب التوبة، فإن به ملكا موكلا فاعمل، ولا تيئس" الزهد والرقائق لابن المبارك.

فقال الله –عزَّ وجلّ–: "وعزّتي وجلالي وأنا لا أحجب عنه التوبة ما دام الروح في الجسد"[6]. وعزّتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة ما دام الروح في الجسد.

أبو عثمان الزاهد كان يقول: احتجب عبد الله بن عمرو فأرسلنا إليه امرأةً فقالت له: يا عبد الله، ما الذنب الذّي لا يغفره الله –عزَّ وجلّ–؟ فقال: "ما من ذنبٍ –أو ما من عملٍ– يعمله النّاس بين السماء والأرض يتوب العبد إلى اللهِ منه قبل أن يموت إلا تاب الله –عزَّ وجلَّ– عليه".

مش عايزين نشغل بالنا الآن بالتفكير في اليأس والإحباط والقنوط، أنا عايز أفكَّر تفكير تاني خالص، التفكير التاني ده إزَّاي أرجع لربّنا –سبحانه وتعالى–؟ إزَّاي أعبد ربّنا مرَّة تانية؟ إزَّاي إنّ أنا أندم على الذّنب ده علشان ربنا يكرمني؟ والله يا إخوانًا لو فعلنا معاصي الدنيا كلها فرأى الله –عز وجل– مِن قلوبنا حِرْصًا على التوبة ورجوع، والله يرفعها الله –عزَّ وجلّ– عنده درجات.

قال كعب الأحبار: أصاب رجلٌ من بني إسرائيل ذَنْبًا كبيرًا عظيمًا فحزن عليه، وجعل يذهب ويجيء ويقول: بم أرضي ربي؟ بم أرضي ربي؟ فقال الله لملائكته: "اكتبوا عبدي في الكتاب صِدّيقًا" ياه، ده عمل كبائر، يا ربّ ده عمل كبائر، ده عمل مصائب كبيرة جدًّا، ربّنا بيقول للملائكة اكتبوه عندي صدّيق ليه؟ لإنّه ما شغلش باله وعقله بالتفكير في اليأس إنّما وَجّه فِكْره كُلّه "بِمَ أُرْضِي ربّي؟" بِمَ أُرْضِي رَبّي؟.

ماعز والغامدية زَنَيا في زمن النّبي –صلّى الله عليه وسلم–، وكل واحد منهم ما شغلش باله باليأس والإحباط والقنوط، ولكن شغل باله "بِمَ أُرْضِي ربّي؟" واحد منهم النبي يقول: "تاب توبة لو وزعت على سبعين من المدينة لوسعتهم" والثانية النبي بيقول: "تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض وسعتهم"[7].

هو ده المعنى اللي لازم يكون واضح عندنا ما أشغلش بالي باليأس والإحباط والقنوط، أنا أشغل بالي بس بربّي كيف أرضيه، لا تفكّر في الذّنب ولا تُؤَجّل التّوبة، لا، بل الآن أتوب وأستغفر، "لو أخطأتم.." ده كلام النّبي –صلّى الله عليه وسلم– "لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السّماء ثم تبتم لتاب الله –تبارك وتعالى– عليكم" حسَّنه الألباني.
هو ده كلام النّبي –صلّى الله عليه وسلم– لينا اللي لازم نفهمه وما ننساهوش أبدًا، عايز الآن أفهم حاجة مهمة جدًّا جدًّا، النبي –صلّى الله عليه وسلم– بيقول فيما بعد الذّنب "مَن أحسنَ فيما بَقِيَ، غُفِرَ لهُ ما مَضَى" حسَّنه الألباني. اللي هيُحْسِن مِن بعد الذّنب ربّنا –سبحانه وتعالى– يغفر له ما مضى.

---

[6] حَدِيث "إن الله لما لعن إبْلِيس سَأَلَهُ النظرة فأنظره إِلَى يَوْم الْقِيَامَة فَقَالَ: وَعزَّتك لَا خرجت من قلب ابْن آدم مَا دَامَ فِيهِ الرّوح فَقَالَ الله تَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا حجبت عَنهُ التَّوْبَة مَا دَامَ الرّوح فِيهِ" أخرجه أَحْمد وَأَبُو يعْلى وَالْحَاكِم وَصَححهُ من حَدِيث أبي سعيد أَن الشَّيْطَان قَالَ: وَعزَّتك يَا رب لَا أَزَال أغوى عِبَادك مادامت أَرْوَاحهم فِي أَجْسَادهم، فَقَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَال أغفر لَهُم مَا استغفروني. (المغني عن حمل الأسفار).

[7] ".. لقد تاب توبةً لو قُسِّمَتْ بين أُمَّةٍ لوسِعَتْهُم.." صحيح مسلم.
".. لقد تابت توبةً لو قُسِّمَتْ بين سبعين من أهلِ المدينةِ لوسِعَتْهُم.." صحيح مسلم.

لا تلتفت للذّنب، التفاتنا الأساسي الآن للتّوبة، لا تلتفت لليأس والإحباط والقنوط، الالتفات الأساسي الآن للعمل الصالح، السَّعْي الآن مِن بعد الذَّنب تحت شعار "وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ" طه:٨٤. "وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ"، ده المعنى اللي لازم نفهمه ولازم نقرّب جدًّا مِن ربّنا –سبحانه وتعالى–.

أختم بالكلمة الأخيرة دي لشيخ الإسلام ابن تيمية وهو بيتكلم على فضل الاستغفار والتوبة والرجوع حتى وإن كان الذنب العظيم فبيقول: المعنى لا ييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت، فإن الله سبحانه وتعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التّائب وقد دخل في هذا العموم الشركُ وغيرُه من الذنوب فإن الله تبارك وتعالى يغفر ذلك لمن تاب، ألم تسمعوا ماذا قال الله في شأن المشركين؟ "فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ" التوبة:٥، وفي الآية التانية: "فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ" التوبة:١١.
ألم تسمعوا ما قاله الله في شأن مَن نَسَبَ له الولد: "لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ" المائدة:٧٣. ثم قال الله لهم: "أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" المائدة:٧٤.
لا تيأس أبدًا مع ربّ غفور رحيم كريم.

أسأل الله –سبحانه وتعالى– أن يشملنا برحمته التي وسعت كل شيء، وأن يملأ قلوبنا بحُسْن الظَّن به، فإنه وَليُّ ذلك والقادر عليه، هذا وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصَحْبِه وسلّم.

تم بحمد الله

شاهدوا الدرس للنشر على النت في قسم تفريغ الدروس في منتديات الطريق إلى الله وتفضلوا هنا:

http://forums.way2allah.com/forumdisplay.php?f=36